الراوي بين الحكاية والتاريخ في رواية " الزيني بركات"

The narrator between the story and history in the novel "Zini Barakat"

د- ميسوم عبد القادر*

تاريخ الإرسال: 2019/10/04	تاريخ القبول:2019/10/31	تاريخ النشر:.2019/12/25

الملخص:

بدأ "جمال الغيطاني " الروائي المصري مشروعه باللجوء إلى طرائق السرد التراثية بتقنية القناع التاريخي على نحو العهد المملوكي، مع تقنيات أخرى تمثلت في تكثيف الزمن ليصبح ذا أبعاد وجودية مع التقليل من الشخصيات واستخدام أسلوب السرد بضمير المتكلم، والرحيل بين الأزمنة مع إعطاء الحبكة ذروة التشويق؛ ولقد حاولت الدراسة أن تجيب عن هذه الأطروحات من خلال اختيار نص "الزيني بركات" أين تتداخل الحكاية مع التاريخ بأسلوب التدوين التراثي.

الكلمات المفتاحية: الراوي، الحكاية، السرد التاريخي.

Abstract:

Gamal al-Ghitani, an Egyptian novelist, began his project by resorting to traditional narrative methods using the historical mask technique in the Mamluk era, with other techniques such as condensing time into existential dimensions, minimizing characters, using narrative with a conscience of the speaker, and leaving between times while giving the plot the height of the thrill; The study tried to answer these theses by choosing the text "Zinni Barakat" where the story overlaps with history in the style of blogging

***Key words**: The narrator, the story, the historical narrative .*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

المؤلف المرسل: ميسوم عبد القادر arabeuhbc@gmail.com

* كلية الآداب والفنون ، جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف arabeuhbc@gmail.com

- البريد الإلكتروني : arabeuhbc@gmail.com

مقدمة

إن جمال الغيطاني من الروائيين المعاصرين الذين غرفوا من معين التراث، وقدموا للساحة الأدبية نصوصا تتفاعل وتتعالق بالتراث السردي القديم، فمختلف نصوصه الروائية لا تريد أن تسكن، وبتبسيط أكثر، الغيطاني لا يبغي إلا أن يجد مبررا موضوعيا ومعقولا لقلقه الإبداعي الدائم، وبحثه المستمر عن شكل قديم أو جديد ليدخل فيه ويتخلص من مناوشة الشكوك التي لا تحصى، ومن الهموم التي تجعله في موقف المتفرج، وأحيانا يجري مع الركب ليعرف كنه ذاته، وفي اعتقادنا أن هذا هو السبب المباشر الذي دفع بالغيطاني لأن يسير في اتجاه آخر، مخالفا الأنماط الشكلية، عله يأتي بما لم يأت به أسلافه، وهنا أيقظ أسئلة عديدة منها:

هل يمكن اعتبار تجربة الغيطاني عبر الخطاب التاريخي وجنس الخطط والحس الصوفي استرداد لكتابة متجذرة تقف في الطرف الآخر رافضة أي نوع من الاستلاب؟ هذه الإشكالية ومخارجها هي التي تحكم قلق هذه الدراسة وتوجه مسارها . ولقد حاولت الدراسة أن تجيب عن هذه الطروحات من خلال اختيار نص "الزيني بركات" وفي اعتقادنا أنه السرادق البارز من ناحية الانفتاح على خطابات متشابكة في الزمان والمكان، كما يعد اقتراحا روائيا تجريبيا يواجه حداثة وافدة مرفوضة، وينأى عن قالب الرواية الغربية. كما أن السارد يخرج عن عرف الخطاب السردي ويدخل في عالم الخطاب التاريخي بأسلوب التدوين التراثي ليصور الباطن والمجهول بشعرية متدفقة تتصارع فيها الدلالات من مثالب الأبعاد الزمنية، ولا أريد هنا أن أضفي على هذا النص أكثر مما لديه وأصفه بصفات ليست فيه، بل أريد أن أقول إن خطاب الزيني بركات له ميزاته الخاصة، في عالم أصبحت فيه العولمة تتنامى في أبنيتنا الثقافية وهويتنا، كما تتنامى النباتات في المناطق الاستوائية، بل لقد دحر تراثنا الإبداعي والتاريخي إلى الهامش.

بدأ الغيطاني مشروعه باللجوء إلى طرائق السرد التراثية على نحو العهد المملوكي، مع تقنيات أخرى تمثلت في تكثيف الزمن ليصبح ذا أبعاد وجودية مع التقليل من الشخصيات واستخدام أسلوب السرد بضمير المتكلم، والرحيل بين الأزمنة مع إعطاء

الحبكة ذروة التشويق في " الزيني بركات" و"وقائع حارة الزعفراني" أما " كتاب التجليات" فيمثل العالم الأرحب في اكتشاف الغيطاني للنصوص الصوفية مع"الفتوحات المكية" لابن عربي على وجه الخصوص، وكل هذا الجهد يصب في خانة "التجريب" كبصمة للذات التي تسللت إلى ممرات النص المهددة من الآخر الذي تفرضه الحداثة النصية، ولكننا في كل الأحوال وجدنا أنفسنا مجبرين لإعطاء بسطة وجيزة عن (شفرات النص الغيطاني)[1]

الفكرة التي نحاول البرهنة عليها تتناول علاقة (جمال الغيطاني) كمثقف وروائي عربي له جذور وانتماء بهذه القضايا ذات الطابع الديني والثقافي المتعدد، في مواجهة الاستلاب الحضاري والانسلاخ، مادام أن لكل أمة هويتها المميزة. ونحن قد ذكرنا سلفا أنه يحاول النفاذ إلى ظواهر الوجود الكوني ووجود الإنسان العربي من عدة طرق كان أبرزها مضمار الكتاب التراثية، وبما أنه يسلك ممرات عدة فلكلورية وميثولوجية وصوفية فسوف تكون تضاريس عوالمه بدرجات مختلفة واقعية ورمزية سريالية ورومانسية، فهل يمكن اعتبار أعمال الغيطاني السردية منعطفا كبيرا في ساحة الإبداع العربي ؟ وهو سؤال أثاره صلاح فضل وهو يقارب نوافذ الغيطاني بقوله كل هذه المتون مجموعة من السبائك الثمينة تخلق نمطا جديدا في السرد .

إن الوقوف عند هذه الإشكالية يبقى شغلنا في بداية المطاف خصوصا مع التجريب وارتحالات السرد الروائي وجدل الشذوذ عن قاعدة النظرية السردية الغربية وتوظيف التراث وسؤال الحداثة، وما يطرحه من أنساق داخل المتن الحكائي بأشكاله وأبنيته الناجمة عن " هاجس التجريب". وحري بنا أن نشيد ببعض القراءات النقدية التي سلكت ممرات النص الغيطاني وسبرت أغواره للوصول إلى نتائج باستخدام آليات تحليل الخطاب السردي، وستكون انطلاقتنا مع الرواية الأولى لجمال الغيطاني وهي " الزيني بركات" التي لخصت واختزلت انطلاق ملامح التجريب الروائي.

1- قناع التاريخ في " الزيني بركات"[2]

من ضمن القراءات النقدية التي استأنسنا بها لوضع اليد على شفرات النص الغيطاني كتاب " تحليل الخطاب الروائي" للباحث سعيد يقطين، حيث توضح هذه الدراسة " تمفصلات الرؤية السردية في الزيني بركات"[3]، ولعل السبب الذي كان وراء

اختيارنا هذه الدراسة هو أنها تقدم لنا رؤية شمولية من وجهة نظر تناصية مع التراث من خلال فعل الكتابة، هذا من جهة ومن جهة أخرى يعد الباحث سعيد يقطين من السباقين في دراسة هذا العمل الروائي من زوايا مختلفة تجاوزت عالم الخطاب إلى جوانب أوسع وأرحب آفاقا[4] فهذه الدراسات ستمكننا من إعطاء رؤية أوضح فيما يخص طرائق السرد التاريخي المملوكي وبعض جوانب التناص.

وفي نطاق نزعة البحث عن المغايرة، يتكئ الغيطاني على رؤية متناغمة ومعقدة في رواية ذات شكل تاريخي باحثا عن الحقيقة الموضوعية تماما كابن إياس في مصنفه "بدائع الزهور في وقائع الدهور"[5] وهو يصف سلسلة من الوقائع بأسلوب الحكواتي ونتأمل بداية الرواية التي تعتبر " بمثابة العتبة التي تقذف بنا في رحابة النص"[6] وكأنها لوحة عريضة من لحظات الغوص مع الحدث قادرة على إثارة فضول القارئ وشده بكل أساليب الترغيب وتستحق الاقتباس حرفيا.

(تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام، وجه القاهرة غريب عني ليس ما عرفته في رحلاتي السابقة، أحاديث الناس تغيرت أعرف لغة البلاد ولهجاتها، أرى وجه المدينة مريضا يوشك على البكاء..... أطل برأسي قليلا أخاف انفتاق الظلام عن وجود درك قساة القلوب، إذ يجدونني إفرنجيا يدفعون بي إلى الموت بلا محاكمة، لا استجواب لا سؤال من أنا من أين جئت، لن تتاح الفرصة لأخبرهم، إني أعرف الوالي "كرتباي" معرفة شخصية، بل إنني أصغيت مرتين إلى متولي حسبة القاهرة " الزيني بركات بن موسى" لو رآني سيتذكرني، أعرف أنه لا ينس وجها عابرا رآه مرة واحدة، حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام، رجب922هـ أغسطس إلى سبتمبر 1517م."[7])

يذكر شاكر النابلسي في الفصل السابع المعنون بـ" صباح الخير يا ابن إياس" أن جمال الغيطاني بدأ يكتب الرواية من عام 1970 وكان قد كتب قبلها مجموعة قصصية واحدة فقط(أوراق شاب عاش منذ ألف عام 1969) لم تصل إلى النضج الفني، لكنه لم يطرق من خلالها باب التجريب،" أما روايته " الزيني بركات" تعد رواية تجريبية حاول فيها ابتداع شكل جديد من الأشكال الروائية العربية"[8] وهذا الشكل الجديد يحاول أن يحتوي واقعا معقدا وبالتحديد من " التاريخ العربي" وذلك في كتابة ترى البشر والشخوص والأحداث وتعبر عن انحراف العصر وتردي القيم، وكأنها عملية استرجاع للذاكرة لمساءلتها من جديد، وقد عبر الباحث محمد بدوي "أن الغيطاني يركز باحثا عن

أشكال جديدة في مجموعته القصصية الأولى غير أن المحاولة كانت حينذاك جنينية مشوبة بغضاضة الأدوات وعدم استواء اللغة"[9]. ومهما يكن من اختلاف في النضج الإبداعي والتجربة الروائية فالموقف واضح في تقديرنا وهو رغبة الغيطاني الشديدة في خلق نص جديد يسائل الهوية والانتماء والمقصود هنا " هوية النص" لأن مشروع الغيطاني الكتابي يحتضن فردية عارفة بأسئلة زمانها وتصوغ أسئلتها القلقة المتجددة بمنظور روائي"[10] عل حد تعبير الباحث فيصل دراج.

2-الحكي السردي التراثي

من أجل إعطاء توضيح علينا أن نعود إلى عنصر " تمفصلات الرؤية السردية" كما أشرنا سلفا فمع " الشكل السردي البرانى الحكي يفتح الحكي، فالرحالة الايطالي زار القاهرة مرارا وفي كل زيارته يسجل ملاحظاته ومشاهداته، ويحكي من خلال منظوره الخاص وهو منفعل بالحدث، متأثر بما آلت إليه أحوال القاهرة وهي على أبواب الهزيمة"[11] فكيف حبك الغيطاني هذا النص وأعطاه وجها آخر مخالفا؟من خلال:

التجريبي في الشكل

التجريبي في الشخصية

التجريبي في اللغة

تقدم " الزيني بركات" عالما روائيا انتفى فيه الأمان، وسيطر فيه التجسس، فثمة جهاز البصاصين تقوم عليه دولة بجسم ضخم لكنه مترهل ينخره الفساد وكل أنواع المعاملات الفاسدة حيث الفقر والقمع والمقشرة والثراء الفاحش من قبل أفراد القصر، لكنه عالم مدجن مهزوم يمكن أن يؤم فيه " زكريا بن راضي" كبير البصاصين المؤمنين في الصلاة هذا ما حاول نقله إلينا الغيطاني على لسان الرحالة الايطالي لكن بلغة فارقت زمنها، إنها لغة العهد المملوكي، فرغبته في القول وكشف المسكوت عنه طغت على الجانب الفني. وهذا تفصيل مما جاء في فهرس الرواية.

السرادق الأول:

ما جرى لعلي بن أبي الجود وبداية ظهور الزيني بركات بن موسى (ص70/17)

السرادق الثاني:

شروق نجم الزيني بركات، وثبات أمره، وطلوع سعده(ص128/71)

السرادق الثالث:

وأوله... وقائع حبس علي بن أبي الجود (ص185/129)

السرادق الرابع:

زكريا بن راضي (ص187/ 220)

السرادق الخامس:

" اللهم اجعل هذا البلد آمنا" سري لا يطلع عليه مخلوق (ص263/222)

السرادق السادس:

كوم الجارح (ص273/271)

السرادق السابع:

آه أعطبوني وهدموا حصوني (ص281/279)

قد يكون من المناسب لفت النظر إلى هذه السرادقات التي توصلنا بعبق اللغة القديمة بمفرداتها المهجورة، بل حتى أسماء بعض الأماكن عادت لتحيى من جديد من خلال جهاز سردي مثقل بالفوضى والاضطراب الاجتماعي، حيث يراوح النص بين خطابات متعددة ويتكئ على نبرة النظام الداخلي المشوش كما أننا أيضا مع كثرة وجهات النظر، أو على وجه الدقة تنوع زوايا الرؤية وكثرة التساؤلات لا نكاد نسمع إلا صوت الراوي المبحوح عبر الاستشهادات النموذجية للرحالة الايطالي يبدو فيها متوجسا حس الفوضى، بيد أن هذه الصور " بدايات الهزيمة" تتجلى لنا عندما ينتقل السارد إلى الماضي البعيد وأحداثه كسند روائي للزمن، وكمخرج يستطيع أن يقول من خلاله حقائق واقعية يصعب قولها من خلال الأشكال الروائية الحديثة المتعارف عليها " خاصة وأن هذه الفترة من الحاضر تعد من أشرس الفترات البوليسية في تاريخ مصر"[12] فضلا عن ذلك تعتبر "الزيني بركات" باتفاق غالبية النقاد والدارسين هي الهاجس الذي انصرف إليه الغيطاني لقول ما يريد قوله دون خوف أو عقاب أو حساب من السلطة، وهي وسيلة يلوذ بها الكاتب كأنه راو شعبي حكاء يعرف كل شيء ويقص من خلال لغة مكثفة أسلوبها حاد موجز ينتصر للحكي والانتقاد الذي يوجز ويلخص ويكشف المسكوت عنه.

كما أن صوت الراوي يتحول إلى طيف يقدم الأحداث وينميها دون أن يبرز هويته نصيا ولذلك – يبدو طبيعيا- في مثل هذا السياق أن يركز النص على نبرة التهويل،

واللغة فيه مثقلة بدلالات لصيقة بمجتمع يتلقى خطاب السلطة الآمرة(دينيا أو سياسيا) بالطاعة والتسليم وعلينا أن نلاحظ أن ذكر اسم الرحالة والتاريخ هجريا وميلاديا يعمد إلى إقناعنا بأننا في زمن ولى ولم يبق منه إلى رسمه، لكن السؤال المهم في هذه الحالة هو: أثمة سياق يلمس جدل العلاقة بين الزيني بركات كنص يقارب النصوص التراثية من جهة عبق الأسلوب ويختلف في معماريته عن الرواية الغربية ؟

وهناك براهين عديدة لا يتسع المجال لرصدها ومساءلتها، فالنص ينطوي على إرث الذاكرة ، لذلك نجده يمتح من التراث أسلوبا وتصويرا وتعتيقا بعيدا عن أشكال الحداثة الفنية الغربية من حيث الشكل وهو المجال الوحيد للتجديد والبارز، إذ تنعكس بنية الرواية الداخلية في هندستها النصية على " السرادق" بدل " الفصل" ويوزعها على أقسام سبعة متناثرة في النص وتأخذ عناوين تنطوي جماليا مع دروب التصانيف القديمة ومندغمة في العالم النصي وإن لم يقل هذا بوضوح، إنها إحدى تقنيات الكتابة التي تستطيع المساس بالتقاسيم الإبداعية للنهوض بهذا النص في معترك التجريب، وفي نظرنا أن "الغيطاني" يواجه إشكالية علاقة المجتمع المصري بجذوره التاريخية وثقافته الممتدة في الزمان وتعاقب الحضارات عليه، بعبارة أوضح جدل التاريخ والتراث ومدى الانسجام بين الذات والآخر، وهنا نكتفي بتأكيد مغزى هذا التوجه الذي انتهجه الكاتب من كلام فيصل دراج الذي ننقله حرفيا فيقول " يرجع الغيطاني إلى ابن إياس والمقريزي مترجما معرفة وافرة بالتراث ويركن إلى أدوات فنية مترجما حدسا فنيا لامعا ومعرفة روائية لا ينقصها اللمعان"[13]. إذن فما هو الوجه الذي تقصد الغيطاني بناءه للخروج من حدود التقليد ليدخل مغامرة الكتابة .

3-هاجس التجريب ومغامرة الكتابة:

الواضح أن البنية الجمالية غنية بإنجازها التشكيلي، تشير إلى أن " الغيطاني " فعلا يواجه مأزقا مع الكتابة بوصفها إشكالية حضارية تمكنه من إعادة النظر في التاريخ فاختار الأدوات الباهرة قياسا لهمه الإبداعي، وفي مثل هذا السياق محتوم عليه أن يقع بين نارين، بين ثقافة غربية تعصف بكل ما تحمله من علوم وفنون وفلسفة تدير ظهرها للجوانب الروحانية، وبين تراث مكدس في خزائن الذاكرة مفتوح على دروب الروحانيات وما بينهما وجد القلق الكتابي " وفي كلتا الحالتين يحس الكاتب مرارة الغربة فلا هو بين

أهله إذا شرب من ينابيع الثقافة الأوروبية، ولا هو غني بنبض حياته إذا قفل راجعا إلى ثقافة آبائه"[14]. وللتدليل على هذا استعرنا من كلام " جمال الغيطاني" نفسه بعض عباراته من كتابه " منتهى الطلب إلى تراث العرب" التي بث فيه شعورا ينبض بمشكلات وأزمات في سياق البحث عن أشكال روائية مغايرة لما كان سائدا في الساحة الأدبية من قيم وتقاليد كتابية فيقول :" كانت رغبتي في ابتكار أشكال جديدة من التعبير، وليس التوصل إلى أشكال فنية جديدة، وهو الهدف في حد ذاته، لكنها الرغبة في إيجاد أفضل شكل يتيح قدرا كبيرا من الحرية، الحرية في الإبداع والتفكير في تجاوز أشكال الكتابة القديمة، شكل يحقق لي قدرا أكبر من حرية التعبير"[15] هذا هو معترك التجريب الذي خاضه الغيطاني حتى استقر على استراتيجيات وتقنيات تشكيلية يمكن استحضارها من مصنفات تراثية لصيقة بالمثقف المصري/ العربي، وهذا ما حرص على تأكيده محمد بدوي وهو يضع القسم الأول بعنوان" مغامرة الشكل الروائي" في كتابه الرواية الجديدة في مصر.

إن الحديث ليطول بنا إذا تعقبنا خطاب " الزيني بركات" بناء وكيف كان يتنوع بخصائص تتميز عن بعضها البعض، لكنه لا بد من وقفة عند الإطار العام، فما بين الواقع المادي الذي يتحرك عبر أنسقة وآليات محددة والواقع الروائي التخيلي، جاء النص حاملا عالما روائيا يوهم القارئ بأنه واقع اجتماعي عيني وكل هذا تتحكم فيه نكهة اللغة المعتقة. فقد استفاد الكاتب من توظيف الخطاب التاريخي كتقنية في الحكي، لبسط الأحداث من خلال عيون كثيرة بحثا عن حقيقة الحاضر ما يمنح الرواية إيقاعا زمنا خاصا وخلق مسحة جوهرها (التاريخ يعيد نفسه) بتعبير ابن خلدون في مقدمته ، أي " أن القول بأن الروائي وظف التاريخ لعمله، يضحى فضفاضا إن لم نحدد الأمر بدقة فنقول: إنه لجأ إلى التاريخ المملوكي الذي يتسم باختلافه عن التدوين التاريخي في العصور التي مضت.. والحق أن استفادة الغيطاني من التاريخ تقف عند ابن إياس في حولياته"[16] من حيث مراحل النص ومستوياته (الجمل والمقاطع) أي الخيط الرابط بين عناصر النص من بدايته إلى نهايته في شكل متصل .

ولعل هذا التأثر الصريح بنمط التدوين التاريخي جعل رواية " الزيني بركات" تنتقل من وثيقة تاريخية حقيقية إلى حقيقة متخيلة، فإذا قرأنا " السرادق الأول" نلمح الناظم الداخلي في هذه الوحدة، يقلب رؤيته لرسم صورة (وجه القاهرة) وكأننا أمام رؤية

متناغمة سينمائية، تصف المشهد والشخصيات والأحداث، ويطغى فيها صوت متحرك من موقع إلى آخر، دأبه أن يصف الحدث ويسوق الحوار" وهو في سرده وتبئيره معا لا يبدو لنا متفرجا من الخارج، فحاضر المدينة يعاني منه هو أيضا .. وهو يسعى لإعطاء صورة أشمل وغير محدودة" لكن حينما نقرأ نصادف لغة تختلف عن لغة الإفرنجي الرحالة الإيطالي، إنها لغة رجل مصري خالص، فحين يقول الراوي على لسان شخصية الزيني بركات وهو يعبر طريق أمير الجيوش، حيث ربط دابته إلى وتد في الطريق وأتى نحو دكان " حمزة بن العيد" يرتاح للجلوس فيرحب به قائلا" أهلا... أهلا... يا نهار الفل"[17] كما يقول عامة أهل مصر، فضلا عن أسماء المأكولات والمشروبات (سنبوسه، ماء الورد، ..

ولأن الرواية تحشد عددا كبيرا نسبيا من الأسماء الرائجة في الحقبة العثمانية من أمثال (الأمير تمربغا أتابك، الأمير ماماي الطبردار، الأمير سودون، الأمير خايربك...) لكنها حشدت حشدا لتخطيط طريف يوافق زمن الحكاية، وهو أمر ليس دليلا على أي خلل، بل تنبجس كخيوط قصدية، لتربطنا بالعالم السردي لأنها تكشفه كغريب ومفارق، أما " الزيني بركات" الذي سميت الرواية باسمه" فشخصية حقيقة من شخصيات العصر المملوكي، وقد تحدث ابن إياس في تاريخه بطريقة نلمح منها إدانته لبعض من الممارسات والسلوكيات التي التصقت به بحكم الوظيفة التي كان يشغلها في العهد الأخير عهد السلطان (قانصوه الغوري)"[18].

ومن خلال **تمفصلات الرؤية السردية الكبرى**، تصلنا الأحداث عبر أكثر من ملمح لهذا الخطاب، فلدينا منظور الرحالة الإيطالي ومنظور الراوي الذي يتقاسم معه مهمة السرد ، ثم منظور " زكريا بن راضي" في تقاريره التي كان يرفعها للزيني بركات, وهذا برهان واضح على أن الغيطاني يفتح ثغرات في النسق للحصول على أكبر درجة من التطابق مع النماذج التي يحاكيها، ثم نلتقي بمنظور ""عمرو بن العدوي في تقاريره" ومن ثم يتحرك النص ويندمج الماضي والحاضر في زمن واحد تحت سلاسة السرد والوصف.

ويمكننا أن نقول أن تعدد زوايا الرؤية على النحو السالف يقربنا من الراوية المطلع على كل شيء، إنه أشبه بالشاهد على التاريخ، حتى الأفكار السرية للأبطال[19] على نحو أتاح للروائي أن يقدم لوحات طويلة عن عالم الرواية المعقد والمتعدد المخارج

والمداخل، كما أن زمن الأحداث يتشابك على أصعدة مختلفة، وبمعنى آخر نحاول التوقف إزاء إشكالية هذه الرواية الأساسية أعني نحن مع نص تجريبي تجري أحداثه في زمن غابر" فهناك الفترة التاريخية المحددة التي يدور السرد فيها الممتدة من 912هـ أي قبل الاحتلال العثماني لمصر بعشر سنوات إلى 923 هـ وقد مضى على الاحتلال العثماني عام واحد"[20] لكن قراءته تشير إلى أن هذا الزمن ليس مقصودا لذاته، وإذا حددنا الزمن أكثر فنقول أن هذه الرواية " تغطي فترة من الحاضر تعد من أشرس الفترات البوليسية في تاريخ مصر، وهي الفترة الممتدة من عام 1956م إلى 1967م "[21] لذلك نجد مستوى التشكيل النصي قائم كما ألمحنا سابقا على لوحات سردية تخاطب الماضي أشبه بتقارير جهاز البصاصين الذي حكمه رجل قوي يمتلك مهابة أسطورية، تبدأ من المستوى الجسدي وتنتهي بما يبديه من ترفع عن الدنايا في صورة " الإمام العادل التقي" أو " المحاسب الأمين " وهذا هو الجانب المبدع في هذا النص الذي يفر من زمنه في مواجهة المؤسسة الاجتماعية لتشكيل الوضع المأساوي وهنا يظهر لنا ما تريد الكلمات قوله لنا وهو ماساهم في انفتاح النص الغيطاني نفسه. وفيما يلي بعض المقتطفات من أهم مظاهر تلوينات الخطاب، وقد اخترناها بهدف إبراز التداخل النصي بين الخطاب السردي السالك وجهة الفن والخطاب التاريخي الباحث عن الحقيقة، لأنها في نظرنا تبقى مفاتيح من أجل اكتشاف دلالات النص بغض النظر عن مقصد المؤلف، وهي أهم ميزة تحقق للنص فرادته وخصائصه النوعية.

4- فواصل تناصية (الخطاب السردي/التاريخي)

4-1-فاصل ندائي

(يا أهالي مصر

نوصي بالمعروف وننهى عن المنكر، اليوم.. ، خرج السلطان إلى الريدانية

يا أهالي مصر

العطار صابر بن الحمزاوي غش في الميزان، غش المغات ودس السقنقور الهندي، رأى الزيني بركات - ناضر حسبة القاهرة والوجه القبلي- منفذ تعاليم الشريعة وحافظ حقوق الناس، وخادم السلطان بتغريمه مائة دينار"[22])

يجري انسياب هذه اللغة من خلال الأنساق الرمزية للتعبير عن واقع دولة المماليك بألفاظ تختلف عن قاموس عصر الكاتب (مصرفي العصر الحديث)، إن

الموضوع إذن ينطوي على مراسلات جرت صياغتها على قاعدة تجارب منبثقة من استعمال الألفاظ القديمة، حتى يتبادر إلى ذهن القارئ أن ثمة جدلا زمنيا ينبغي أن يدقق فيه. (الحقيقة تتوارى خلف اللغة). فالقارئ يقرأ الرواية وكأنه يقلب صفحات الأيام الماضية

4-2 فاصل إبلاغي (مرسوم شريف)

(بسم الله الرحمن الرحيم

" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"

" وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"

الحمد لله الذي هدانا إلى كشف أشرارنا إلى خيارنا لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام في البلاد، فمن بعد ترسيمنا على الباغي بن أبي الجود، وإقامتنا دونه الحدود رأينا ملء وظائفه ومراتبه، وحتى نحفظ العدل ونطلب المزيد، فكل منا عليه رقيب عتيد، رأينا توزيع هذه الوظائف على أرباب المعرفة والعلوم... وبعد قراءة التواريخ الماضية واستيحاء العبر والوصول إلى حقيقة المبتدأ والخبر وبعد طول تفكير وتدبر، قررنا بتولي بركات بن موسى حسبة القاهرة..(قلعة الجبل ثامن شوال) ").[23]

تظل متاهات السرد هي الأكثر تعالقا مع ظل هذه اللغة، ونشير إلى البياض كمظهر من مظاهر الكتابة كأنه انسجام عمودي (الجمل والمقاطع) له دور حساس في توافق المحتوى بالشكل، أي تشاكلهما كسيرورة حيوية وكتنظيم حول أبعاد التجريب ولنا في هذا ملمح نستشفه من (واستيحاء العبر والوصول إلى حقيقة المبتدأ والخبر) أفلا تكون بصمات ابن خلدون في مصنفه الضخم تسيج هذا المقبوس السردي.

4- 3 فاصل إخباري (تقرير)

(اللهم اجعل هذا البلد آمنا"

إلى الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة

نبدأ بأن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نقيمها في كل حكم، وتحاول سيوفنا جاحديها فتنهض بالحجة عليهم وهم بكم، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من ائتمر بالعدل والإحسان وأعدل آمر أمته بالوزن والقسط صلى الله عليه وعلى آله وصحبه.

اعلم أننا بدأنا إليك بالمراسلة وأردنا اطلاعك على ما تحويه المكاتبة ابتغاء أمن العباد في سائر النواحي والبلاد لأنكم لن تطلعوا على خافي الأمور، إلا بما نطلقه بين المسلمين من عيون،.. فهذا ما درجت عليه النظم والرسوم منذ وقت غير معلوم ... ولكم منا سلامنا. عاشر من شوال 912هـ كبير بصاصي السلطنة

الشهاب الأعظم ط" زكريا بن راضي")[24]

واضح أن الغيطاني في توظيفه لهذه المادة من الحكي يحاكي ابن إياس بتصوير نحتي أو خطي أو ما يجري مجرى ذلك، حيث يستطيع بقواه المائزة انتقاء ما يناسب المقام السردي ولحظة الحكي ومن خلال هذه التعالقات النصية " نجد أن التحولات مست مختلف البنيات السردية، الشيء الذي يجعلنا ونحن نقرأ (الزيني بركات) نستشعر أننا أمام معمار مختلف" وهذا ما يثبت استيعاب التراث فنيا، بل أن القول التشبيهي والمحاكاتي يبدو أنه تحقق أصلا في وجهة نظرنا.

خاتمة

إذن على مستوى بنية النص، تمثل معارضة الرواية لحوليات ابن إياس التاريخية، وهي استيراتيجية بنائية أساسية مكنت الكاتب من إلقاء الضوء وإبراز تجادل العصرين في اختلافهما وتوافقهما، وكأننا أمام عملية إسقاط، فعندما يجعل الغيطاني شخصياته تتكلم بلغة العصر المملوكي، فإن المظهر التراثي يبدو بارزا من خلال أسلوب الفواصل التي قدمناها سلفا.

ولقد غرس الغيطاني في بنية النص محافظا على عبق العصر واللغة والبنية وما تتضمنه من تضمين واقتباسات، ومثل هذه القدرة تعطي انطباعا بثراء وتنوع وتعقد الظاهرة الخيالية عنده " فهو لا يعيد كتابة التاريخ ولكنه انطلاقا منه يكتب رواية.. إنه يحول مادة الخطاب التاريخي لتقدم من خلال نوع مختلف بمواصفاته ومكوناته المختلفة هو" الرواية" ونجد ذلك في زمن الخطاب وصيغة السرد والعرض ووجهات النظر أو تبئيراته"[25] ولذا يمكن أن نستشعر عبق التاريخ المصري في العهد المملوكي ونحن نقرأ " الزيني بركات" في عهد التكنولوجيا الرقمية، كما نلمح معمارا مختلفا عن الأشكال الرواية الغربية، وإذا كان هذا النمط من الكتابة يهجس ربما بكلاسية النص، فإنه يقرب من شكل فني جديد يخاطب الذاكرة المصرية لتأمين بقائها.

الهوامش:

[1] - استعرنا هذا العنوان من كتاب, سعيد توفيق، عالم الغيطاني ، دفاتر التدوين، دار العين للنشر، القاهرة،2008، ط1، ص: 09

[2] - جمال الغيطاني ، الزيني بركات، دار الشروق،القاهرة،ط1.1989

[3] - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي،الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1 ، 1989 ،ص: 357/318

[4] - نشير هنا إلى كتاب انفتاح النص الروائي 1989 وكتاب " الرواية والتراث السردي" 1992 الصادرين عن المركز الثقافي العربي.

[5] -ينظر ابن إياس. بدائع الزهور في وقائع الدهور،المطبعة الأميرية، مصر،ج 2، 1311هـ تجد التقاطع الكبير في أسلوب الكتابة وكأن الروائي جمال الغيطاني يستنسخ لغة ابن إياس.

[6] - عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي الصهيوني، مركز دراسات الوحدة العربة، بيروت،2005 ط1 ص: 44

[7] -مقتطف من مشاهدات الرحالة البندقي (فيا سكونتي جانتي) الذي زار القاهرة أكثر من مرة في القرن السادس عشر الميلادي أثناء طوافه بالعالم . جمال الغيطاني ، الزيني بركات، الرواية، ص: 08/07

[8] - شاكر النابلسي، مباهج الحرية في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للنشر، بيروت،1992 ط1، ص: 271

[9] - محمد بدوي، الرواية الجديدة في مصر، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت،1993، ط1، ص: 64

[10] - فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، مرجع سابق، ص: 232

[11] - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق ص: 318

[12] - شاكر النابلسي، مباهج الحرية في الرواية العربية، مرجع سابق ص: 272

[13] - فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، مرجع سابق، ص: 235

[14] - زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق ، بيروت،(د.ط)،(د.ت)، ص: 99

[15] - جمال الغيطاني،منتهى الطلب إلى تراث العرب، دار الشروق ،بيروت،1997 ط1، ص" 05

[16] - محمد بدوي، الرواية الجديدة في مصر، مرجع سابق ، ص: 63/15

[17] -جمال الغيطاني، الزيني بركات ، الرواية، ص: 121

[18] - مأمون عبد القادرالصمادي. جمال الغيطاني والتراث، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ط).(د.ت) ص: 40

[19] -Focalisation زاوية رؤية الراوي(أو أشكال التبئير) هي مسألة تقنية تستخدم مثل عدسة المصور لالتقاط الأحداث ومجراها على الشخصيات، ينظر 102

GERARD,GENETTE ,FIGURE/// ,ED :SEUIL.PARIS.1972,P :206أو116/

[20] - فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، مرجع سابق، ص: 235

[21] - شاكر النابلسي، مباهج الحرية في الرواية العربية، مرجع سابق ص:272

[22] - الزيني بركات ، الرواية ص: 85

[23] - الزيني بركات ، الرواية ص: 30/29

[24] - الزيني بركات ، الرواية ص: 68/67

[25] - سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، مرجع سابق ص: 107

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊